شتّت عدوان الاحتلال الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني شمل أعضاء فرقة مقام غزة. تحطّمت آلاتهم وأمضوا أشهر العدوان ينتقلون من مكان إلى آخر داخل قطاع غزة. لكن، تدبّر أعضاء الفرقة أمرهم، واستطاعوا أن يغادروا القطاع إلى مصر، ليلتقوا هناك مجدّداً

مقام غزة لا شيء سوى الحنين

من أحد العروض في مصر (فيسبوك)

هيثم أبوزيد

لأسباب كثيرة وتعقيدات متراكمة، لم يكن من السهل على أي موسيقي يعيش في قطاع غزة أن يفكر في إنشاء فرقة غنائية، فالتجارب أثبتت أن المهتمين بالموسيقى يكابدون معاناة شديدة في سبيل نيل الحد الأدنى من المستلزمات العملية لممارسة الفن تعليماً أو تدريباً أو عرضاً. مجرد الحصول على آلة موسيقية ليس بالأمر الهين داخل القطاع، وتزداد الصعوبات عند من يريد أن يقدم الموسيقى ضمن فريق، يحتاج إلى التمويل والتدريب والبروفات. برزت هذه العقبات أمام الشاب أنس النجار حين قرر تدشين فرقة مقام غزة مع مجموعة محدودة من أصدقائه المهتمين بالموسيقى.

منذ 2020 حتى العدوان

وبالإرادة والإصرار، ظهرت الفرقة إلى النور عام 2020، واستطاعت أن تثبت أقدامها من خلال ما تقدمه من عروض موسيقية وغنائية، تجمع بين التراث الفلسطيني القديم والأعمال المعاصرة، وفق رؤية ترى أن الفن جزء من الواجب النضالي لاستعادة حقوق الشعب الفلسطيني عموماً، وإبقاء جذوة الأمل مشتعلة في نفوس سكان قطاع غزة على وجه الخصوص. لأكثر من 13 عاماً، عمل أنس النجار في ميدان التعليم الموسيقي، إلى أن تبلورت في ذهنه فكرة تأسيس الفرقة مع أصدقائه الهواة. وخلال فترة قصيرة، استطاعت المجموعة أن تقدم حفلات جماهيرية في أكثر من مناسبة داخل قطاع غزة، ومنها أمسية «يلا نغني» بمركز القطان، ومهرجان أثر الفراشة الذي أقيم في المركز الثقافي الأرثوذوكسي بالتعاون مع المعهد الفرنسي ومنظمة يونسكو.

وسَّعت هذه العروض من جماهيرية الفرقة، التي لفتت انتباه محبي الموسيقى الشرقية الكلاسيكية، وهواة الطرب القديم. ثم جاء عدوان الاحتلال الإسرائيلي على القطاع، فلم يتوقف نشاط الفرقة وحسب، بل تشتّت شمل أعضائها، وذهب كل منهم في طريق، منشغلاً بما حوله من دمار وموت وفقدان للأهل. لم يستطع أحد منهم أن يجري مكالمة تلفونية مع زميله، وحالت ظروف الحرب بينهم وبين اللقاء. خسر معظم أعضاء الفرقة منازلهم، وتحطمت الآلات الموسيقية. ويقول إياد أبو ليلة، أحد مؤسسي الفرقة وعازف الرق فيها: «بعد أيام من الحرب، نزحنا إلى الجنوب بسبب القصف الشديد على كل مناطق الشمال، فأقمنا في مدرسة تابعة لـ«أونروا» في رفح، وكانت الحياة صعبة جداً، بخاصة في وجود أطفال، فلا توجد أي مقومات للحياة، لا أكل ولا شرب ولا كهرباء». بدا أن قصة الفرقة قد انتهت. وبتفكير فردي، سعى كل واحد منهم إلى الخروج من القطاع والوصول إلى مصر، وهو ما كان. في مصر، اكتشف كل عضو في الفرقة أن زملاءه قد وصلوا إلى القاهرة، وبدأت اتصالاتهم لإعادة الالتئام. وجد أعضاء الفريق في مصر جواً مؤاتياً وظروفاً مساعدة. انطلقت ترتيباتهم لتقديم أول عروضهم على مسرح دار الأوبرا، وبرعاية من وزارة الثقافة المصرية والسفارة الفلسطينية في القاهرة. قدمت الفرقة باقة من الأعمال المتنوعة التي تمثل التراث الفلسطيني وتتناسب مع ظروف الحرب في قطاع غزة. ولقي أعضاء الفريق ترحيباً كبيراً وتشجيعاً مؤثراً من الجمهور المصري، ومن وسائل الإعلام المصرية.

يؤكد عازف الإيقاع في الفرقة سامح أبو ليلة أنه لم يخطر في باله أن يلتقي أعضاء الفريق مرة أخرى، بعد أن غيرت الحرب كل شيء في حياته. يقول: «أنا من جباليا، وكنت أعمل مدرّباً للإيقاع في معهد للموسيقى بغزة. وعندما اندلعت الحرب، خرجنا من منازلنا بعد أن ألقت الطائرات الإسرائيلية علينا منشورات تطلب إخلاء المنطقة، فنزحنا مع العائلات إلى الجنوب وتوجهنا إلى رفح وأقمنا فيها 60 يوماً متواصلة في ظروف صعبة، وبعدها جئنا إلى مصر. لم أكن أتخيل أن أقابل أصدقائي وأعضاء الفرقة مرة أخرى، فقد خرج كل منا بمفرده، لكننا وجدنا دعماً وترحيباً من المصريين. مغنية الفرقة ليندا مهدي تقول إن الحفاوة التي قوبلت بها الفرقة في مصر شجعتنا على مواصلة دورنا في توصيل صوت غزة إلى العالم، والحفاظ على الهوية الفلسطينية وإحياء التراث الموسيقي الفلسطيني».

> تقدم فرقة «مقام غزة» أغنيات جديدة كُتبت خصّيصاً لها
>
> يرى أعضاء «مقام غزة» أنفسهم ممثلين موسيقيين لبلدهم

إنقاذ آلة القانون

فقد كل عازفي الفرقة آلاتهم بسبب الدمار في غزة، باستثناء عازف القانون فراس شرافي الذي استطاع أن ينقذ آلته، وأن يصطحبها إلى مصر لتغرد على مسارح القاهرة. يروي شرافي قصته مع قانونه قائلاً: «عندما اضطررت إلى النزوح من بيتي شمال غزة، لم أحمل معي سوى آلتي الموسيقية التي رافقتني من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى رفح، وأخيراً إلى مصر». يعتبر شرافي آلة القانون وسيلته للمقاومة، وطريقته الوحيدة للحفاظ على التراث والهوية في مواجهة كل محاولات الطمس والمحو. فللمقاومة أشكال متعددة، تختلف باختلاف قدرة كل فلسطيني.

تحرص الفرقة في حفلاتها أو تسجيلاتها المنشورة على قدر معتبر من التنوع: أغنيات تخص القضية الفلسطينية، مقتطفات من التراث الشعبي الفلسطيني، مختارات من أغاني أم كلثوم. كما تقدم باقة من المؤلفات الموسيقية الشهيرة، مثل مقطوعة ذكرياتي لمحمد القصبجي، أو لونغا فرح فزا لرياض السنباطي، مع رؤية توزيعية تمزج بين الآلات الشرقية والغربية. سيجد المستمع الذي يتتبع إنتاج الفرقة أداء مختلفاً لأغنية «افرح يا قلبي»، أو «ألف ليلة وليلة» لكوكب الشرق، أو «التوبة» لعبد الحليم حافظ، أو «زهرة المدائن» لفيروز، أو «أهو ده اللي صار» لسيد درويش»، أو موسيقى «خطوة حبيبي» لمحمد عبد الوهاب، أو «بتونس بيك» لوردة، أو «بلا ولا شي» لزياد الرحباني. لكن الفرقة تقدم أيضا أغنيات جديدة كُتبت خصيصا لـ«مقام غزة»، مثل: «إنت وين» التي كتبها محمد الشافعي، ولحنها إسلام رفعت، وغنتها ليندا مهدي، وتقول كلماتها: «إنت وين وأنا وين.. ما فيه غير الحنين.. صرنا وسط الدنيا.. أنا وإنت ضايعين.. ما بعرف عنك إشي.. بلقبي نار ما بتنطفي.. وجرحي ما بينشفي.. مهما عدوا السنين». وتصف كلمات الأغنية طرفاً من مأساة المشاعر الإنسانية لسكان قطاع غزة فتقول: «وين الحلم اللي كان.. كل طموحنا زمان.. بيت صغير وأمان.. ليش كل شيء بلحظة انهدم». يأمل أعضاء الفرقة استمرار نشاطهم الفني، سواء في مصر أو عبر مشاركتهم في المهرجانات الفنية التي يدعون إليها.. يرون أنفسهم ممثلين موسيقيين لغزة التي تواجه عدواناً وحشياً اقترب من إتمام العام. يرى أعضاء الفرقة أنهم مقاتلون على جبهة مهمة، تتمثل في الهوية والتراث وإيصال صوت القطاع إلى العالم، من خلال أسلحتهم الفريدة: بيانو أنس النجار، وقانون فراس شرافي، ورق إياد أبو ليلة، وصوت ليندا مهدي. لكن أمنية غالية تبقى في الانتظار، وهي أن يغني الفريق ويعزف بين جماهير غزة وجباليا وخانيونس ورفح مرة أخرى.

مبادرة للأطفال

من جهة أخرى، هناك فرق كثيرة في قطاع غزة لم تستطع المغادرة، وبقي أعضاؤها هناك، بعضهم يحاول أن يجد في الموسيقى ملجأً للتخفيف من وطأة عدوان الاحتلال الإسرائيلي على القطاع. وفي خطوة لافتة، أطلق معهد إدوارد سعيد الوطني للموسيقى مبادرة تحمل عنوان «سلام لغزة»، تستهدف الأطفال في عدد من محافظات القطاع، عبر مجموعة فعاليات ترفيهية، تضم العزف على مختلف الآلات الموسيقية.

تأتي المبادرة تزامناً مع تفاقم الواقع المعيشي لفلسطينيي قطاع غزة الذي يتعرّض إلى حرب الإبادة والمجازر الجماعية، وسط إغلاق المعابر، ومنع دخول شاحنات البضائع والمواد الأساسية، وفي مقدمتها الماء والمواد الغذائية والوقود والمساعدات الإنسانية والأدوية، إلى جانب منع خروج المرضى للعلاج منذ بداية العدوان، وتشديد الحصار إثر السيطرة على معبر رفح البري مطلع شهر مايو/أيار الماضي.

«رابسودي إن بلو»... 100 عام تحطّ في برلين

برلين ـ **علي موره لي**

لما كَلّف قائد الأوركسترا بول وايتمان Paul Whiteman سنة 1924 المؤلّف جورج غيرشوين George Gershwin (1898 - 1937) أن يكتب مقطوعة موسيقية حواريّة، تحمل في طيّاتها طابع موسيقى الجاز، بين آلة بيانو وفرقة موسيقية بطاقم أوركسترالي، كان في باله أن تُقدّم احتفالاً بذكرى ميلاد الرئيس الأميركي الأشهر أبراهام لينكولن (1809 - 1865) على مسرح في ناطحة سحاب وسط مدينة نيويورك الأميركية. بعدد تردّد، لبّى غيرشوين التكليف بأن كتب «رابسودي إن بلو» (Rhapsody in Blue).

كان أبراهام لينكولن قد لعب دوراً بارزاً في ما يُسمّى اتفّاق «إلغاء العبوديّة» بموجب إقرار المادة الثالثة عشرة من الدستور الأميركي سنة 1865. وعليه، هناك رمزية بيِّنة في ما يخص وايتمان وغيرشوين، حينما تحيي أوركسترا أميركية، ذكرى مولدِ لينكولن بعزفِ موسيقى ذي بنية وبصمة كلاسيكية أوروبية، وفي الوقت نفسه مستوحاة في مُجملها من موسيقى الأفارقة الأميركيين.

إثر استضافتها هذا العام من قبل مهرجان برلين للموسيقى الكلاسيكية «موزيك فِست» (Muskifest)، اختارت الفرقة السيمفونية لمدينة كنساس في ولاية ميسوري الأميركية، تحت إدارة قائدها الألماني ماتياس بلينتشر، أن تحتفل في 28 أغسطس/آب الماضي، وعلى مسرح القاعة الفيلهارمونية في برلين، بمرور 100 عام على أوّل أداءٍ لمقطوعة غيرشوين الشهيرة.

عزف دور البيانو الصيني الأميركي المقيم بمدينة نيويورك كونراد تاو Conrad Tao. اتسم الأداء، سواء للفرقة أو العازف المنفرد، على مستو عالٍ من الدربة والتمرّس. بجانب الرابسودي، ضَم برنامج الحفل، الذي صُمّم ليكون أميركياً خالصاً، مجموعة أعمالٍ مكتوبة لفرقة أوركسترالية من تأليف عَلمَين بارزين، يعدّان من بين المؤلفين الكلاسيكيين الأكثر تأثيراً في تاريخ الموسيقى الأميركية، هما تشارلز آيفز Charles Ives (1874 - 1954) وآرون كوبلاند Aaron Copland (1900-1990). لعل ذلك قد أتى نتيجةً طبيعية لكثرة الدربة والتكرار على مدار العام، ناهيك عن معظم المواسم الفنية من كل عام.

> توظّف المؤسسات الثقافية الأميركية المقطوعة بوصفها بروباغاندا

جورج غيرشوين في بورتريه ذاتي (Getty)

في مقالة بعنوان «رابسودي إن بلو: التحفة الأسوأ» نشرتها صحيفة ذا نيويورك تايمز شهرَ يناير/كانون الثاني الفائت، وصف عازف البيانو والمؤلف والناقد الأميركي إيثان إيفرسون المقطوعة بأنها من بين الأطباق الموسيقية الأكثر تقديماً على موائد الحفلات في الولايات المتحدة، كما انتقد خروجها عن خصوصيّات البيئة الموسيقية الطبيعية للجاز، وعليه، تعليب المكوّنات «الجازيّة» داخل منتج موسيقي مخصص لأجواء الموسيقى الكلاسيكية ومرافقها.

في المقابل، جرى وما زال، توظيفها من قبل المؤسسات الثقافية في البلاد وخارجها بوصفها بروباغاندا ثقافية أميركية، إذ أُدرجت ضمن الفعاليات الاحتفالية ببدء دورة الألعاب الأولمبية حين استضافتها مدينة لوس أنجليس سنة 1984 وسط الأجواء المتلبدة بسحب الحرب الباردة. حينئذ، استقدمت الإدارة المُنظّمة 84 عازف بيانو محترفاً، ليعزف كل منهم جزءاً منها، وذلك ضمن لوحة فنية موسيقية راقصة، صُمّمت خصّيصاً للمناسبة.

من الناحية الشكلية، لم تأت «رابسودي إن بلو» بأيّ تغييرات نوعية في قالب الحواريّة بين آلة مُنفردة وفرقة أوركسترالية، والمعروف بالمصطلح الإيطالي Concerto كما تبلور في الحقبة الرومانسية على أعتاب القرن العشرين، إذ يبقى جُلّ الجديد غير مألوف هو تلك الثيمات المستوردة من موسيقى الجاز والبلوز. أما من ناحية المضمون، فلا تحمل المقطوعة في طيّاتها أيّة حمولة فكرية عميقة أو شحنة عاطفية مؤثّرة، بل هي مجرد منصّة جذّابة مُحكمة التصميم، الهدف منها هو الترفيه موسيقياً من خلال استعراض بهلوانياتٍ أدائيّة، تبهر المستمع وتبرز كفاءة العازف/المؤلف، على اعتبار أن غيرشوين نفسه، كان من أدّاها بمصاحبة وايتمان وفرقته، حين عُرضت على الجمهور لأوّل مرة.

إذا ما استُمع إليها في إطار الحساسيات التي باتت تستأثر اليوم بخطاب الهويّاتية السياسيّة، كما يتبنّاه منظّرو اليسار التقدمي الجديد وناشطوه، يمكن أن تُعدّ نموذجاً مبكّراً للاستلاب الثقافي Cultural Appropriation، إذ إنّ مؤلفاً أميركيّاً أبيض قد كُلِّفَ من قبل قائد فرقة أميركيّ أبيض بكتابة مقطوعة، تحمل طابع الموسيقى الخاصة بالأميركيين السود. ذلك ما أقرّت به مقالةٌ أخرى نشرتها ذا نيويورك تايمز شهر فبراير/شباط، بقلم عالم اللسانيات المختص بالعلاقات العرقية من جامعة كولومبيا، جون ماكهوتر، عنونتها «لا، ليست الأسوأ»، أتت بمثابة ردٍّ على المآخذ التي وردت في مقالة إيفرسون، إلا أنها خلَصت إلى أن الرابسودي تبقى عملاً فنياً أخّاذاً، يتميّز بحسن الصنعة، وحسن النيّة أيضاً، إن وُضِعت في سياقٍ تاريخيٍّ سابقٍ لحركة السود في سبيلِ نيل حقوقهم المَدنية (1954 - 1968) حين كانوا لا يزالون يعانون كلّ مظاهر التمييز على جميع المستويات.